

الإعلام في العراق: حمام دم وتجريد العراقيين من صفات الإنسانية بشكل فادح

بقلم داوود كُتاب*

داوود كُتاب حائز على جائزة أحسن صحفي فلسطيني وناشط جديد في مجال الإعلام ومفكر، وهو حالياً أستاذ جامعي يدرس الصحافة في جامعة برينستن

ملخص

اقتربت الحرب في العراق بوقوع عدد من الإصابات لا مثيل له بين أفراد الصحافة العراقية والأجنبية. وإذا كان انتهاء نظام صدام حسين قد أعاد فصح المجال إلى نشاط إعلامي مفعم بالحيوية، فإن غياب تغطية أمنية لحماية الصحفيين قد كلف ثمناً باهظاً في الأرواح البشرية. ولم تشهد الحرب التي شنتها أمريكا على العراق بحجة تحرير شعبه من حكم استبدادي، أية محاولة جدية من الإعلام الغربي أو حتى العربي للتركيز على الجانب الإنساني في العراق. ولا تعدو الأنباء عن الخسائر في أرواح المدنيين العراقيين أن تكون مجرد عرض لأرقام إحصائية.

تدور رحى الحروب والنزاعات في عقول الناس وقلوبهم تماماً مثلما تنشب في ميدان المعركة. ويجمع الميثاق التأسيسي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) بين هاتين الصورتين في عبارة تنص ديباجة هذه المنظمة العالمية كالاتي: "لما كانت الحروب تتولد في عقول البشر، ففي عقولهم يجب أن تبنى حصون السلام"¹.

وإن كان الظفر بالعقول يعد في الماضي جزءاً لا يتجزأ من الآلة الحربية، فإن معركة العقول أصبحت تكتسب أهمية خاصة في الثورة الرقمية الراهنة. وفي العراق وأجزاء أخرى من العالم، فاز المنادون بالحرب لا محالة بهذه المعركة التي غالباً ما تجري على صفحات الجرائد وشاشات التلفزيون وخسرها كل الذين حاولوا منذ البداية تفاديها وما زالوا يسعون إلى إنهاؤها.

ويكفي أن ننظر عن قرب إلى النزاعات المسلحة وكل ما يحيط بها حتى نكتشف أن رغم كثرة ما قيل (وبدرجة أقل ما جرى تنفيذه) من أجل التحكم في مجريات الأحداث في منطقة الحرب، لم تبذل جهود كثيرة لمعالجة مسألة التغطية الإعلامية، وحماية الصحفيين من الأضرار النفسية أو الجسدية، أو الكراهية والعنصرية والتجرد من

* نشر الكاتب الطبعة العربية لكتاب "Crimes of War: What the Public Should Know" (جرائم الحرب: ما ينبغي للجمهور معرفته)، أنظر الحاشية رقم 2 أسفله. عنوان الاتصال الإلكتروني: info@daoudkuttab.com
¹ الميثاق التأسيسي لليونسكو المعتمد في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1945.

صفات الإنسانية التي تتركها التغطية الإعلامية للنزاعات في نفوس بعض الصحفيين حتى أكثرهم احترافاً وعلى مستوى أجهزة الإعلام.

دور الإعلام في النزاعات المسلحة

قبل الخوض في الحديث عن مصير الصحفيين في النزاع العراقي، من المفيد تحديد الدور الذي يؤديه الإعلام في النزاعات المسلحة بصورة عامة. وربما نجد أهم إسهام قدمه الصحفيون في المساءلة العامة في سطور الكتاب المعنون "Crimes of War: What the Public Should Know"² (جرائم الحرب: ما ينبغي للجمهور معرفته)، وهو دليل وضع لمساعدة الصحفيين على تبين جرائم الحرب وغيرها من تبعاتها والتمييز بينها. ويوضح "ريتشارد غولدستون" في مقدمة الكتاب أن التغطية الإعلامية للحرب يمكن أن تتكلل بالنجاح، إذ: "رغم أن المراسلين والمراقبين في جبهات القتال يبدون خيبة أمل لفشل تقاريرهم وجهودهم في بلوغ الوعي العام وعدم تمكنهم من تغيير أوضاع لا تطاق، فالحقيقة أن تغطية جرائم الحرب بطريقة دقيقة ومناسبة زمنياً ومتقنة يمكن أن تترك أثراً مهماً يبعد كل البعد عن أية أنباء محسوبة ومباشرة"³. ويرى "غولدستون" أن تأسيس المحكمة الجنائية الدولية للأمم المتحدة ليوغسلافيا السابقة كان أفضل مثال عرفه العالم مؤخراً لهذا النوع من حملات التغطية الإعلامية: "فقد حملت التقارير المرئية والمكتوبة التي صورت مأساة ضحايا التطهير العرقي في البوسنة مجلس الأمن على اتخاذ قرار لا سابق له بإنشاء محكمة كجهاز فرعي له. ولم يكن من الوارد مطلقاً التفكير قبل ذلك في استخدام قوات مجلس الأمن لحفظ السلام لهذا الغرض أو اقتراحه. وإذا كان التطهير العرقي في أوروبا ونهاية الحرب الباردة قد لعبا دوراً حاسماً في اتخاذ هذه المبادرة، فإن الكشف الإعلامي كان بلا أدنى ريب الدافع إلى اتخاذ القرار"⁴.

الإعلام في العراق قبل الغزو

ظهر العمل الصحفي في العراق قبل أن تتأسس الدولة نفسها. فقد صدرت الطبعة الأولى للجريدة اليومية "الزوراء" في 15 حزيران/يونيو 1869. وكانت الدساتير المنتالية والقوانين المتعلقة بالصحافة متحررة نسبياً مما أتاح جواً من الحيوية يسر نشاط الصحافة والنشر في العراق. وبدأ الوضع يتدهور بعد أن تسلم حزب البعث مقاليد الحكم في 1963. ومع أن المادة 35 من دستور عام 1964⁵ تكفل لكل واحد حرية التعبير عن

² "روي غوتمان" و"دفيد ريف"، جرائم الحرب: "Crimes of War: What the Public Should Know" (جرائم الحرب: ما ينبغي للجمهور معرفته)، نورتن 1999. يمكن الاطلاع على الكتاب على العنوان التالي: <http://www.crimesofwar.org/thebook/book/html> (آخر زيارة للموقع في 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

³ المرجع نفسه. المقدمة بقلم "ريتشارد غولدستون".

⁴ المرجع نفسه.

⁵ يمكن الاطلاع عليه على العنوان التالي: <http://nahrain.com/d/dstr/1964.html> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

رأيه، فلم تمض خمس سنوات على انتزاع صدام حسين السلطة بقوة في حزبه البعثي حتى وضع قيوداً على حرية التعبير المضمونة وجعل مخالفة هذه القيود فعلاً يعاقب عليه القانون. وجاءت المادة 225 من القانون الجنائي رقم 11 لعام 1969 لتقوض حرية الصحافة بفرض قيدين: أولهما يلزم الصحافة بأن تترجم إيديولوجية حزب البعث الحاكم كما يصرح بها الحزب في مؤتمره السنوي؛ وثانيهما ينص على أن يعاقب القانون بالسجن مدة سبع سنوات⁶ كل تشهير بالقذف في حق الرئيس أو حزب البعث. وفي 1986 ارتفعت مدة العقوبة لتتحول إلى عقوبة بالسجن لمدى الحياة، أو عقوبة الإعدام إذا كان الهجوم ماكراً يهدف إلى تحريض الرأي العام ضد السلطة الحاكمة. كما صدر بيان صحفي في 26 كانون الأول/ديسمبر 1968 ألغى كل تراخيص وسائل الإعلام السابقة لإرغام الجميع على طلب تراخيص جديدة⁷، وفرض حظراً على الكتابة عن اثني عشر موضوعاً مختلفاً (البند 16)، وفرض شرط الحصول على موافقة مسبقة قبل الكتابة في سبعة مجالات مختلفة (البند 17)، ومنع الصحافة الأجنبية من الكتابة في ثمانية مجالات (البند 19). وفي 1981، صدر قانون أحال النشاط الصحفي إلى اختصاص وزارة الثقافة والصحافة التي عُهدت إليها وظيفة محددة تهدف إلى استخدام وسائل الإعلام لنشر إيديولوجية الحزب الحاكم. وتولى نجل صدام حسين، عدي حسين، رئاسة اتحاد الصحفيين بعد أن انسحب كل مرشحي المعارضة؛ وأصبح الولاء المطلق للرئيس صدام حسين وعائلته وبلغ مستوى فاق الولاء للبلاد أو الوطن.

العنف ضد الصحفيين خلال النزاع المسلح في العراق

على الرغم من أن القانون الدولي الإنساني يمنح قدرًا من الحماية إلى الصحفيين⁸، فإن تغطية الحروب جعلت مهنة الصحافة عملاً بالغ الخطورة. وعلى مدى السنوات الأربع الماضية، زاد عدد الصحفيين الذين لقوا حتفهم أو أصيبوا في العراق أكثر من أي جزء آخر في العالم. وواصلت المنظمات الدولية التي ترصد وضع الصحفيين وصف العراق بأنه أكثر مناطق العالم خطورة بالنسبة لأمن أفراد الإعلام. وإذا كانت احتمالات الإصابة أو الموت عالية لدى الصحفيين الأجانب الذين يعملون في العراق، فإن الحالة أسوأ بكثير بالنسبة إلى زملائهم العراقيين.

وجاء في تقرير لجنة حماية الصحفيين، ومقرها في نيويورك، أن 124 صحفياً لقوا حتفهم في العراق من أصل 242 قتيلاً من الصحفيين الذين تأكد مصرعهم على مدى

⁶ للحصول على كل المعلومات الأساسية، انظر التقرير المفصل وهو التقرير الختامي لبعثة تقصي الحقائق في العراق، من 7 إلى 10 حزيران/يونيو 2003 تحت عنوان، "Working with Iraqi Journalists – Towards a Free and Independent Media"، (العمل مع الصحفيين العراقيين – الطريق إلى إعلام حر ومستقل)، لندن، 2 تموز/يوليو 2003. يمكن الاطلاع عليه على العنوان التالي: <http://www.apfw.org/data/report/english/2004/spec1100.pdf> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

⁷ المرجع نفسه
⁸ أنظر على وجه التحديد المادة 79 من البروتوكول الإضافي الأول (1977) إلى اتفاقيات جنيف لعام 1949 (12 آب/أغسطس)، ومقالة "ويليام أ. أورن جونيور" تحت عنوان: "Protection of Journalists" (حماية الصحفيين) في كتاب "Crimes of War" المشار إليه سابقاً (الحاشية 2)

الفترة الممتدة من عام 2003 إلى غاية أيلول/سبتمبر 2007. وكان من بين هؤلاء الضحايا المائة والأربعة والعشرين، 102 صحفياً من أصل عراقي⁹. ويرتفع هذا العدد بشكل صارخ عند إضافة عشرات العراقيين من مقدمي خدمات الدعم الإعلامي الذين قتلوا. وبالنظر إلى هذه الأرقام في سياقها، من المهم الإلماح إلى عدد الضحايا الأقل بكثير المسجل في حروب سابقة¹⁰. فعدد الصحفيين الذين راحوا ضحية هذه الحرب وهم يؤدون مهمتهم فائق الوصف بالمقارنة مع الحروب السابقة¹¹.

علاقات القوات العسكرية الأمريكية مع الصحافة خلال النزاع المسلح

في ربيع عام 2003، صرح الجيش الأمريكي بوضوح أنه ليس مسؤولاً عن مصير الصحفيين المستقلين غير المنضوين تحت لوائه أو لواء حلفائه. ورغم المحاولات الحثيثة لإبلاغ القوات العسكرية الأمريكية عن مكان الصحفيين المحدد وموقع إقامة الحشود منهم بالتحديد، لم تُتخذ أية ترتيبات لضمان حمايتهم. وأفادت الأنباء بأن القيادة المركزية الأمريكية التي مقرها في دولة قطر المجاورة كانت تتابع التقارير التلفزيونية التي تذيعها، مباشرة في أغلب الأحيان، فرق الصحفيين العرب والأجانب المستقلين الموجودين بكثرة في العراق¹². لكن هذا لم يمنع من شن قصف على فندق فلسطين الذي اتخذه الصحفيون مكان إقامتهم. فصار هذا الحادث دليلاً قاطعاً لدى الهيئات الإعلامية والمنظمات غير الحكومية المعنية بالدفاع عن الصحفيين تستخدمه باستمرار لإثبات تعمد الأمريكيين على "تخويف" الصحافة المستقلة وردعها عن مواصلة عملها.

شرعية الهجوم على محطات التلفزيون والإذاعة

شنت القوات الأمريكية، في أوج حرب أمريكا على العراق في آذار/مارس 2003، هجمات على المحطة التلفزيونية الرئيسية في بغداد ودمرت هياكلها التحتية والفوقية. وسرعان ما أعادت قناة التلفزيون بثّ برامجها موحية بأن العراقيين كانوا يتوقعون الهجوم فاستعدوا له وأعدّوا طرق بديلة للإرسال. ورأى العديد من الناس أن الهجمات المتكررة على محطات التلفزيون والإذاعة ليست إلا تعبيراً عن الأهمية التي يكتسبها

⁹ تقرير لجنة حماية الصحفيين "لمحة إحصائية عن الصحفيين الذين قتلوا منذ عام 2003 أثناء أداء المهنة"، المتاح على العنوان التالي: http://www.cpi.org/Briefings/Iraq/Iraq_danger.html (آخر زيارة للموقع في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

¹⁰ المرجع نفسه. نشرت لجنة حماية الصحفيين الأرقام التالية المتعلقة بحروب سابقة: الجزائر (1993-96): 58؛ كولومبيا (1986)، إلى هذا التاريخ): 54؛ البلقان (1991-95): 36؛ الفلبين (1983-87): 36؛ تركيا (1984-99): 22؛ طاجيكستان (1992-96): 16؛ سيراليون (1997-2000): 15؛ أفغانستان (2001-2004): 9؛ الصومال (1993-95): 9؛ كوسوفو (1999-2001): 7؛ حرب العراق (1991): 4 (قتل جميعهم بعد انتهاء الحرب رسمياً لكن لقوا حتفهم عقب ذلك مباشرة).

¹¹ المرجع نفسه. نزاعات أمريكا الوسطى: قُتل 89 صحفياً في الفترة 1979-89؛ الأرجنتين: 98 قتيلاً في الفترة 1976-1983؛ فيتنام: 66 قتيلاً أثناء تغطية النزاع هناك في الفترة 1955-1975 (أصدرت قائمة الوفيات مؤسسة منتدى الحرية، وهي مؤسسة محايدة تدعو إلى حرية الصحافة وحرية التعبير للجميع). وأحصى نادي اليابان للمرسلين الأجانب 71 قتيلاً في صفوف الصحفيين في الفترة 1962-75 التي شملتها دراسته. وأحصت مؤسسة منتدى الحرية 17 قتيلاً من الصحفيين في الحرب الكورية، و68 قتيلاً في الحرب العالمية الثانية، وقتيلين اثنين في الحرب العالمية الأولى.

¹² أظهر الشريط الوثائقي "Control Room" (غرفة المراقبة) أن القيادة المركزية الأمريكية تتابع كل ما يذاع على الشاشات التلفزيونية العربية والأجنبية من العراق.

الإدراك الجديد نزاعات الحروب المعاصرة. وغالباً ما يحاول البعض تبرير الهجمات على محطات الإرسال مدعين بأن هذه الأجهزة تسخر لتعبئة أبناء الطرف الخصم أو بثّ الدعايات التي تخدم قضيته. ومع ذلك لا شيء يبرر مثل هذه الهجمات. وبناءً على المادة 52 من البروتوكول الإضافي الأول إلى اتفاقيات جنيف الذي يُؤخذ بصفة عامة على أنه روح القانون الدولي العرفي، لا يمكن بشكل عام شن هجمات على هيئات إعلامية إلا إذا كانت تشكل أهدافاً عسكرية¹³. وينحصر التعريف القانوني لمفهوم الهدف العسكري، في ما يتعلق بالأعيان، على تلك الأعيان التي تسهم مساهمة فعالة في العمل العسكري "سواء كان ذلك بطبيعتها أم بموقعها أم بغايتها أم باستخدامها، والتي يحقق تدميرها التام أو الجزئي أو الاستيلاء عليها أو تعطيلها في الظروف السائدة حينذاك ميزة عسكرية أكيدة"¹⁴.

وتشير تحقيقات لجنة حماية الصحفيين إلى أن نيران القوات العسكرية الأمريكية أودت بحياة تسعة (9) صحفيين لتصل نسبة الضحايا 22 في المائة من مجموع القتلى ويكون هذا السبب ثاني أهم أسباب مصرع الصحفيين. ولقد لقي صحفيون حتفهم بسبب انفجارات القنابل والصواريخ أو الهجمات الجوية التي شنتها القوات الأمريكية، أو إثر رشق بالرصاص من القوات الأمريكية عند نقاط التفتيش وحواجز الطريق أو بالقرب منها. وتقول لجنة حماية الصحفيين: "مع أنه لا يوجد دليل يسمح بالخلاصة إلى أن الجيش الأمريكي استهدف عمداً الصحفيين في العراق، فإن السجلات تبين أن القوات الأمريكية لا تتخذ الاحتياطات الكافية لضمان سلامة الصحفيين وهم يؤدون عملهم. وعندما يُقتل الصحفيون، لا يبدي الجيش الأمريكي في الكثير من الأحيان أي استعداد لفتح تحقيق أو التخفيف من خطر التهديد باتخاذ التدابير المناسبة. ولم تباشر تحقيقات رسمية إلا في ثلاث حالات تتعلق بصحفيين قُتلوا على يد القوات الأمريكية"¹⁵.

وقبل سقوط بغداد، حقق الجيش الأمريكي في حادث يعود إلى نيسان/أبريل 2003 حين أطلقت دبابة أمريكية النار على فندق فلسطين في بغداد فأودى بحياة صحفيين اثنين وإصابة ثلاثة آخرين. وسلط تقرير الجيش الضوء على بعض التفاصيل لكنه لم يُجب على السؤال المهم ألا وهو: لماذا لم يقدم قادة الجيش الأمريكي الذين كانوا يعلمون أن الفندق مأهول بالصحفيين هذه المعلومات إلى القوات التي قصفت الطوابق العليا للفندق

¹³ أنظر "جون ماري هنكيرتس" و"الوزير دوسوالد بيك"، القانون الدولي الإنساني العرفي، اللجنة الدولية للصليب الأحمر/كامبريدج، 2005، ص. 115.

¹⁴ المادة 52(2) من البروتوكول الأول. أنظر أيضاً "ماركو ساسولي"، "Legitimate targets of attacks under international humanitarian law" (الهجمات المشروعة بموجب القانون الدولي الإنساني)، وثيقة أساسية أعدت للاجتماع غير الرسمي الرفيع المستوى بين الخبراء بشأن إعادة التأكيد على القانون الدولي الإنساني وتطويره (Informal High-Level Expert Meeting on the Reaffirmation and Development of International Humanitarian Law)، المعقود في كامبريدج من 27 إلى 29 كانون الثاني/يناير 2003، في إطار برنامج البحث في السياسات الإنسانية والنزاعات لجامعة هارفارد.

¹⁵ أنظر تقرير لجنة حماية الصحفيين لعام 2005 على العنوان التالي: www.cpj.org/news/2005/Qatar23may05na_report.html (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

بصواريخ حارقة؟ و انتهت اللجنة إلى القول: "إن لم يكن قتل الصحفيين متعمداً، فإن تقاديه كان من المستطاع"¹⁶.

وثمة سبب آخر يدعو إلى القلق وهو الاعتقاد بأن الهجوم على "وسائل إعلام العدو" يمنع الصحفيين المستقلين من التصوير وإعداد التقارير عن الطرف الآخر. وإذا تمكن جيش معتمد من التحكم في الصور القادمة من منطقة الحرب، فسيسخرها لإظهار احترامه للقانون الدولي وإدارته النظيفة التي لا يشوبها غبار للعمليات. وعلى العكس، إذا استطاع الصحفيون الوقوف على المعاناة التي تتسبب فيها الهجمات بالقتال لاسيما على المدنيين ونقلها، فإن من شأن ذلك أن يزعزع مصداقية ما يقدمه جيش الغزو من أخبار. وعندما أوشكت العاصمة العراقية أن تسقط في يد الأمريكيين في مطلع نيسان/أبريل، بدا وكأن الأمريكيين حريصين على هدم صورة معينة في أذهان الناس في شتى أنحاء العالم. وخلال اليومين السابقين لسقوط بغداد في 9 نيسان/أبريل 2003، لقي خمسة صحفيين أجانب حتفهم: الصحفي في الإعلام المكتوب، "خوليو بارادو"، ومهندس التصوير، "خوسي كوسو"، من أصل إسباني؛ ومراسل قناة الجزيرة، طارق أيوب، الأردني والفلسطيني الأصل؛ والمراسل، "كريستيان ليبينغ"، ومهندس التصوير، "تاراس بروتسيوك"، من أصل ألماني، كلهم قُتلوا في السابع والثامن من نيسان/أبريل على يد جيش الاحتلال. وكتب الكثير حول ما إذا كان هؤلاء الصحفيين ضحية حادث حرب أو أنهم وقعوا ضحية عمل متعمد من الجيش الأمريكي¹⁷. وفي تحقيق أجرته لجنة حماية الصحفيين في 2005، انتقد الجيش الأمريكي على عدم استقصائه حقائق القتل هذه بجدية. وأوضح التقرير أن: "41 صحفياً على الأقل لقوا مصرعهم في العراق منذ اندلاع الأعمال العدائية في آذار/مارس 2003. ووصلت نسبة الضحايا بين الصحفيين في العراق الذين سقطوا نتيجة هجمات المتمردين إلى 56 في المائة إلى هذا التاريخ، وكان ذلك في تفجيرات انتحارية وحوادث تبادل إطلاق النار وهجمات مستهدفة"¹⁸.

الإعلام العراقي بعد الغزو

نجم عن انهيار النظام العراقي بعد عدوان أمريكا على العراق آثارا ذات وقع كبير على الساحة الإعلامية الداخلية.

¹⁶ أنظر "جويل كامبانيا" و"روندا روماني"، "Permission to fire" (التصريح بإطلاق النار)، لجنة حماية الصحفيين، نيويورك، أيار/مايو 2003، على العنوان التالي: http://www.cpj.org/Briefings/2003/palestine_hotel.html (آخر زيارة للموقع في 12 كانون الثاني/يناير 2008)

¹⁷ أنظر، "13 confirmed case of journalists killed by U.S. forces (March 2002-August 2005)" (13 قتيلا من الصحفيين ثبت قتلهم على يد الجيش الأمريكي)، عن لجنة حماية الصحفيين، على العنوان التالي: http://www.cpj.org/Briefings/Iraq/Js_killed_by_US_13sept05.html (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007)

¹⁸ أنظر، "U.S. military consistently fails to probe journalist killings in Iraq" (تقصير الجيش الأمريكي المستمر في التحقيق في قتل الصحفيين في العراق)، عن لجنة حماية الصحفيين، على العنوان التالي: <http://www.cpj.org/news/2005/iraq14sept05na.html> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007)

الأمر الإداري الصادر عن "بريمر" بشأن الصحافة

أصدر "بول بريمر"، الحاكم الإداري الأمريكي لسلطة التحالف المؤقتة، في 10 حزيران/يونيو 2003 مباشرة بعد احتلال العراق، أمرا إداريا يحتوي على سبعة بنود (الأمر الإداري رقم 14)¹⁹ وينص على منع وسائل الإعلام من نشر أو إعادة نشر (أو بث) مواد تدور مواضيعها حول خمسة مجالات مختلفة وتشمل: حظر المواضيع الإعلامية التي تحرض على العنف، والعصيان المدني، والعنف ضد قوات التحالف، وتدعو إلى إجراء تغيير في الحدود العراقية، وعودة حزب البعث. ويخول الأمر الإداري رقم 14 أيضا الولايات المتحدة وحلفاءها حق إلقاء القبض على منتهكي القرار (ومعاقبتهم بالسجن لمدة سنة)، وسحب الترخيص الإعلامي، و"إغلاق مباني أية هيئة إعلامية ثبتت مخالفتها لهذا القرار". وبحلول كانون الأول/ديسمبر 2003، صدر الأمر الإداري رقم 65 والأمر الإداري رقم 66 بشأن وسائل البث الإعلامية²⁰. وحدد الأمر الإداري رقم 65 مجموعة من القواعد التنظيمية التي تطبق على جميع جهات البث، في حين أعلن الأمر الإداري رقم 66 عن تأسيس شبكة الإعلام العراقي كهيئة بث عامة لخدمات الإذاعة والتلفزيون في العراق. وقد يبدو الأمر الإداري رقم 14 مقيدا لكن الوضع العام الجديد أحدث طفرة إعلامية رئيسية في الساحة الإعلامية العراقية.

وأفادت منظمة مراقبة حرية الصحافة العربية بأنه تم إنشاء تسع عشرة جريدة جديدة بعد مضي تسعة أسابيع على انهيار نظام صدام حسين²¹. وتصنف هذه الجرائد عموما حسب الفئات الثلاث التالية:

- الجرائد التي كانت تصدر خارج العراق إلى غاية 9 نيسان/أبريل 2003؛
- الجرائد التي كانت تصدر وتمول من قبل التحالف بقيادة الولايات المتحدة؛
- الجرائد التي كانت تصدر عن عشرات الأحزاب والقوى الجديدة التي ظهرت منذ اندلاع الحرب.

وسرعان ما تبع هذه الجرائد ظهور وسائل إعلام أخرى تمثل جماعات عرقية أو طائفية وأجهزة إعلام مستقلة ومحطات محلية وإقليمية وقمرية جديدة، وتعتمد في الغالب على مراجع قانونية ومالية مماثلة لما سلف ذكره.

وشكلت مهمة تقصي الحقائق التي قادتها منظمة مراقبة حرية الصحافة العربية أول مبادرة اتخذتها منظمة عربية مستقلة لزيارة العراق بعد انهيار نظام صدام. وقد امتدت

¹⁹ يمكن الاطلاع عليه على العنوان التالي: <http://www.iraqcoalition.org/regulations/index.html#Regulations> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

²⁰ المرجع نفسه.

²¹ التقرير الختامي لمنظمة مراقبة حرية الصحافة العربية عن مهمتها لتقصي الحقائق في العراق، من 10 إلى 17 حزيران/يونيو 2003، المشار إليه سابقا في الحاشية 6.

هذه الزيارة من 10 إلى 17 حزيران/يونيو 2003 أصدرت المنظمة على إثرها تقريراً مفصلاً عن وضع الصحافة العراقية كشفت فيه عن الفوضى السائدة على الساحة الإعلامية التي تضم عدداً كبيراً من الأجهزة الإعلامية التي تملكها حكومات وجماعات وأحزاب سياسية بصورة فعلية وتعمل لخدمة جدول أعمال واضح²². وبانت سلامة الصحفيين العراقيين وغيرهم من الصحفيين مهددة من جديد بعد أن أصبح الجيش الأمريكي المحتل يعيش في خندق محصن في العراق وازدادت فعالية القوى المتمردة. وتفاقت مع استمرار الحرب العراقية أعمال التهريب والتخويف والخطف المكثف والإصابات والقتل التي استهدفت الصحفيين العراقيين والعرب ما لسبب إلا لأنهم يمارسون مهنة الصحافة. وكانت الفضائيتان العربيتان الرئيسيتان، الجزيرة والعربية، منذ البداية عرضة لهجمات وأعمال تخويف، فأغلقت مكاتبهما وتعرض الصحفيون وفرق العاملين لديهما للاعتداءات. ومع مرور الوقت أغلقت مكاتب الجزيرة بصفة دائمة في حين أعيد فتح مكتب تلفزيون العربية بعد غلقه مؤقتاً. ومع ذلك، لا يزال الصحفيون العاملون في محطة العربية يعانون من ممارسات التخويف والتهديد بالموت. وفي الفترة الممتدة من 2003 إلى 2007، قُتل ستة صحفيين يعملون لصالح هذه الشبكة التلفزيونية المؤيدة للمملكة السعودية. وأفادت لجنة حماية الصحفيين بأن بحلول عام 2007، كانت شبكة الإعلام العراقي التي ترعاها الولايات المتحدة (وتضم محطة تلفزيون العراقية وفروعها، وجريدة الصباح) قد سجلت أكبر عدد من القتلى كان من بينهم 13 صحفياً²³.

تأثير الولايات المتحدة في الصحافة العراقية

رغم التغطية الواسعة لحوادث القتل والإصابات التي طالت أفراد الصحافة (على يد الجيش أو المتمردين)، كان ضباط الجيش الأمريكي متورطين في عمليات لم يُقَل عنها الكثير. فقد مضت بضع سنوات قبل أن يعرف الجمهور أن موظفي الجيش الأمريكي كانوا يدفعون مالياً للجراند العراقية مقابل نشرها لمقالات تعطي صورة جيدة لجهود الجيش الأمريكي في العراق. وأفادت جريدة "لوس أنجلوس تايمز" أن قسم "عمليات المعلومات" في قوات الجيش الأمريكي كان يحرر مقالات تُترجم إلى اللغة العربية وتُنشر في جرائد بغداد بمساعدة مقاول عسكري. وكان العديد من المقالات: "يشيد بصوت عالٍ منفرد بعمل القوات الأمريكية والعراقية ويدين المتمردين ويطري على الجهود المبذولة من أجل إعادة بناء البلد تحت إشراف الولايات المتحدة"²⁴.

²² المرجع نفسه.

²³ يتبعها تلفزيون بغداد، بمقتل 7 صحفيين؛ والعربية، 6 صحفيين؛ والشعبية 6 صحفيين؛ ورويترز، 5 صحفيين؛ وتلفزيون كردستان، 4 صحفيين. أنظر "لمحة إحصائية عن الصحفيين الذين قتلوا منذ عام 2003 أثناء أداء المهمة"، عن لجنة حماية الصحفيين على العنوان التالي: http://www.cpi.org/Briefings/Iraq/Iraq_danger.html (آخر زيارة للموقع في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 2007)

²⁴ أنظر "مارك مازيتي" و"بورزو داراهاهي"، "U.S.military covertly pays company to place stories in Iraqi press" (الجيش الأمريكي يمول شركة سراً من أجل نشر روايات في الصحافة العراقية)، جريدة "لوس أنجلوس تايمز"، 30 تشرين الثاني/نوفمبر 2005.

وقالت جريدة "لوس أنجليس تايمز"، في إرسال إخباري من واشنطن بتاريخ كانون الأول/ديسمبر 2005، إن العملية كانت مرسومة لتخفي كل ارتباط مع الجيش الأمريكي، إذ "أبرم البنتاغون عقداً مع شركة صغيرة يوجد مقرها في واشنطن تحت اسم مجموعة "لينكلن غروب" من أجل ترجمة مقالات وعرضها على الجرائد. وكان الموظفون العراقيون في المجموعة، أو المتعهدون معها من الباطن، يدعون أحياناً بأنهم مراسلون مستقلون أو مسؤولون تنفيذيون في هيئات إشهار عند عرضهم للأخبار على أجهزة الإعلام في بغداد"²⁵. ولا يدخر الجيش الأمريكي جهداً في نشر دعاياته عبر وسائل الإعلام العراقية على الرغم من تصريحات المسؤولين الأمريكيين بالعمل على تشجيع المبادئ الديمقراطية والشفافية السياسية وحرية التعبير في العراق، والإشراف على تدريب المراسلين العراقيين. وقد وصف وزير الدفاع الأمريكي السابق، "دونالد رامسفيلد" انتشار هيئات الأخبار في العراق بأنه أحد الإنجازات الهائلة التي عرفها البلد منذ تنحية صدام حسين. لكن ما إن أخذ الجمهور علماً بتلك الممارسات، حتى صرح الجيش الأمريكي بأنه وضع حداً للعملية.

تجريد العراقيين من الإحساس الإنساني

رغم أن المهمة المعلن عنها لتبرير الحرب على العراق هي تحرير العراقيين من أغرل الديكتاتورية، لم تتجه الجهود المبذولة إلى التعريف فعلاً بالعراقيين ككائنات بشرية إلى الجمهور الأمريكي. والواقع أن حتى تعداد الضحايا العراقيين لم يلق مكاناً على موجات البث الإعلامي الأمريكي والغربي. ولم تبذل قوات التحالف بقيادة أمريكا أي جهد يذكر في هذا الاتجاه. فبعد مرور وقت قصير من اندلاع الحرب على العراق، صرح قائد القوات الأمريكية، الجنرال "تومي فرانكس"، بوضوح بأن الولايات المتحدة لا تنوي تقييم نتائج عملياتها، فقال: "لا نقوم بتعداد الجثث"²⁶. وخلال حرب فيتنام، كانت النشرات الإخبارية المسائية تبتّ يوماً منحنى بيانياً عن عدد الموتى المسجل. فكان الأمريكيون يتناولون عشاءهم ويشاهدون على التلفزيون في الوقت نفسه كشفاً بيانياً عن عدد الضحايا الأمريكيين المسجل في ذلك اليوم، وعدد الضحايا في صفوف الفيتناميين الجنوبيين وصفوف الشيوعيين. ونقد "إيرا شيرنوس"، أستاذ أمريكي في دراسة الأديان بجامعة كولورادو بمدينة "بولدير"، وأول من نظر في هذه المسألة²⁷، قرار الجيش بشأن تعداد الضحايا قائلاً: "كان هذا التعداد يبدو في ذلك الوقت في قمة العنف اللإنساني"، مشيراً إلى القرار بنشر الإحصاءات المتعلقة بالضحايا الفيتناميين. وأضاف: "إن الطريقة القديمة كانت تبدو غير إنسانية بالفعل بالمقارنة مع أسلوب "تومي فرانك" "

25 المرجع نفسه.

26 مقتبس من مقالة "إيرا شيرنوس"، "Bring back the body count" (العودة إلى تعداد الجثث)، نيسان/أبريل 2003، على العنوان التالي: <http://www.commondreams.org/views03/0401-12.htm> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

27 المرجع نفسه.

الجديد في الحرب. صحيح أن تعداد جثث الموتى يحوّل الأرواح البشرية إلى أرقام مجردة لكنه يستلزم من الجندي الوقوف أمام العالم بأسره والتصريح: "أنظروا جميعاً، إنني قتلت أشخاصا اليوم، هذا هو عدد الأشخاص الذين قتلتم بالتحديد، وحتم عليّ أن أعدّ كل واحد منهم". وتدفع هذه الطريقة الجندي إلى النظر في ما فعله، والتفكير فيه (ولو لوقت قصير)، والاعتراف بصنيعته. إنها طريقة تدفع إلى تحمل المسؤولية". واختتم "شيرنوس" تعليقه قائلاً: "إن القتل اليوم يتملصون من هذه المسؤولية. فهم يتشبثون بالخيال الذي يريد عدد كبير من الأمريكيين أن يؤمن به. وهو الاعتقاد بأن لا أحد يموت في الحرب في الحقيقة لأن ما يجري لا يعدو أن يكون مجرد لعبة فيديو مشوقة. وبهذا التفكير تخفي الجثث بل ويزول فعل القتل نفسه. فعندما تعرض عائلة القتيل صورة الضحية على جنود أمريكيين أو صحفيين، يكون ردهم ببساطة: "من هذا؟ لا سجل لدينا عن هذا الشخص. والحقيقة أن ليست لدينا سجلات على الإطلاق. إننا نقتل ثم نمضي في سبيلنا. لا وقت لدينا لتقييد السجلات. لا رغبة لدينا في ذلك. ولا داع لذلك"²⁸.

ولم تكن المشكلة تتعلق بالقوات العسكرية فقط، بل للإعلام الأمريكي أيضا يد فيها لأنه احتذى بالجيش الأمريكي دون أي تفكير بدلا من الاستمساك بدوره المعتاد ومساءلة الحكومة. وأقر كبير الموظفين التنفيذيين السابق في شركة "تايم وارنير" بوجود ما أسماه "شرطة وطنية" في أغلبية قاعات الأخبار²⁹. وأفاد تقرير صدر عن المؤتمر السنوي السابع لمعهد "آسبن" حول الصحافة والمجتمع، المنعقد في "كوينستاون" في "ماريلند" من 18 إلى 20 حزيران/يونيو 2003 بما يلي: "قال "ولتير إيزاكسن" الذي كان يرأس محطة "سي أن أن" خلال الشهور الأولى من الحرب على الإرهاب، إنه كان يشعر باستمرار أنه بين المطرقة والسندان أمام ما أسماه "الشرطة القائمة على الوطنية" التي لامت "سي أن أن" على أنها لم تساند بحماس الإدارة في تغطيتها للأحداث، و"شرطة المراقبة الحقوقية" التي كانت تشتكي من عكس ذلك³⁰. وبعد مضي سنة على اندلاع الحرب، انتقدت جريدة "نيويورك تايمز" على المستوى الداخلي تغطيتها الصحفية للحرب. إلا أن هذه الاعترافات لم تغير من عملية التجريد من الإحساس الإنساني التي أحدثتها وسائل الإعلام الأمريكية (والتلفزيون بدرجة خاصة). ونفس مصطلح "الشرطة الوطنية" ذُكر من جديد في مؤتمر آخر نظمه معهد "آسبن"³¹. وأعاد

28 المرجع نفسه.

29 أنظر الموقع التالي: <http://www.commondreams.org/archive/2007/08/27/3438/> (آخر زيارة للموقع في 27

تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

30 أنظر "آدم كليمر"، "Journalist, Security and Public Interest" (الصحفي والأمن والمصلحة العامة)، عن معهد

"آسبن"، واشنطن 2003، ص. 6.

31 أنظر "Covering the other : Intolerance and bigotry in the American and Arab media" (تغطية الأحداث

في الطرف الآخر: عدم التسامح وشدة التعصب في الإعلام الأمريكي والعربي)، مؤتمر معهد "آسبن"، مركز "آسبن" في ريفير للمؤتمرات، "كوينستن" في "ماريلند"، من 7 إلى 9 حزيران/يونيو 2006.

المحررون الأمريكيون الكلام عن ملاحظات "إيزاكسن" وأقروا بالضغط الذي كانوا يواجهونه في قاعات الأخبار.

وتجلى هذا التجرد من الإنسانية بصورة خاصة في العزوف عن إجراء جرد فعلي لحجم الخسائر في أرواح العراقيين. وإذا كانت الصحافة الأمريكية والدولية التي تغطي أحداث النزاع الفلسطيني الإسرائيلي تختتم أنباءها في كل مرة وعلى نحو منتظم بسرد لعدد القتلى في صفوف الإسرائيليين والفلسطينيين، مثلما هو الحال منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية مثلا، فإن الصحافة الأمريكية أو العالمية تتغاضى عن هذه العادة لما تتعلق الأخبار بالعراق.

حوار حول الخسائر في أرواح العراقيين جراء الحرب

إذا كانت الدوائر المسؤولة في الصحافة الأمريكية لم تبد أي اهتمام بحساب عدد القتلى من العراقيين والتبليغ عنهم أو تقصي حقائق مصرعهم، يبدو من قبيل السخرية أن يعرب الرئيس بوش عن إرادته في معالجة هذه المسألة رداً على سؤال طرحه عليه شخص من الجمهور. وسئل الرئيس بوش، في اختتام حدث من الأحداث العامة في 12 كانون الأول/ديسمبر 2005، عما إذا كان يعرف تقريبا مجموع العراقيين الذين قتلوا، بمن فيهم المدنيين وقوات الشرطة العسكرية والمتمردين والمترحمين. فأجاب بوش قائلا: "أعتقد أن عددهم 30 000 شخص تقريبا لقوا حتفهم نتيجة الغزو والعنف الجاري ضد العراقيين"³². وفجأة شرعت الجرائد وأجهزة البث الإعلامي الرئيسية في حديث غير متوقع عن الضريبة البشرية التي دفعها العراقيون جراء الحرب. وبدأ المراسلون يشيرون إلى البحوث العراقية المتعلقة بتعداد الضحايا المدنيين كمصدر ممكن للتقديرات التي قدمها بوش³³.

وعقب تصريح بوش، نشرت مجموعة النزاهة والدقة في تغطية الأخبار، ومقرها في نيويورك، التعليق التالي: "لم تعر وسائل الإعلام السائدة اهتماما كبيرا في توثيق البيانات بشأن معاناة العراقيين أو تقديرها كميًا. إلا أن جورج دبليو بوش أدلى مؤخرا بتصريح أثار سلسلة من النقاشات التي لم تكن متوقعة بخصوص هذا الموضوع". وواصلت المجموعة تقول: "ما يغيب عن أذهاننا في الكثير من الأحيان هو أن المشروع العراقي المتعلق بتعداد الضحايا يقتصر على القتلى المدنيين – ولا يشمل المتمردين أو قوات الأمن، كما أشار إليه صاحب السؤال – وكذلك القتلى المدنيين الذين أعلنت عنهم وسائل الإعلام". وعليه فإن الحصيلة الإجمالية، كما تؤكد المجموعة على موقعها، تعكس

³² مقتبس من "أسوشيتد بريس" في جريدة "سياتل تايمز"، 30 كانون الأول/يناير 2005. أنظر الموقع: http://seattletimes.nwsourc.com/html/nationworld/2002679454_webbush12.html (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

³³ أنظر مثلا "Counting Iraqi casualties" (تعداد المصابين العراقيين)، 16 كانون الأول/ديسمبر 2005، على العنوان التالي: <http://www.fair.org/index.php?page=2778>

تقديرات منخفضة، إذ: "من المرجح أن وسائل الإعلام لم تنقل العديد من الإصابات بين المدنيين إن لم تكن أغلبيتها"³⁴. وقامت دراسة علمية أخرى، نشرت في مجلة طبية بريطانية، "ذو لانسيت"، بحساب حصيلة الضحايا المدنيين في العراق وانتهت إلى مجموع أكبر بكثير يصل إلى 100 000 قتيل على الأقل في عام 2004 و عام 2006³⁵.

لكن هذا الاهتمام المفاجئ بالمدنيين العراقيين سرعان ما تلاشى رغم بدايته الناجحة وعادت الصحافة مرة أخرى إلى إهمال الحديث عن القتلى العراقيين. وأفاد "جورج ستيفانوبولوس" في 18 آذار/مارس 2007، بمناسبة الذكرى السنوية للحرب على العراق، بأن أكثر من 3 200 جندي في الجيش الأمريكي لقوا حتفهم³⁶، وأصيب ما لا يقل عن 24 000 منهم بجروح وقتل نحو 60 000 عراقي³⁷. ومن المرجح جدا أن يكون مصدر هذه الأرقام هو مشروع تعداد الضحايا العراقيين. وترى مجموعة النزاهة والدقة في تغطية الأخبار أن استعمال أرقام المشروع العراقي في تقدير عدد العراقيين الذين لقوا مصرعهم في الحرب "عمل صحفي متهاون"³⁸، والسبب هو أن هذا التعداد يشمل بوضوح الضحايا المدنيين دون المقاتلين العراقيين الذين قُتلوا وهم يقاومون في وجه الغزو والاحتلال الأمريكيين أو يدافعون عن الحكومة التي تدعمها الولايات المتحدة. ويتراوح العدد المقدر للمقاتلين العراقيين الذين لقوا حتفهم في المرحلة الأولى من الغزو بين 7600 و10800 بناءً على ما جاء في مشروع البدائل الدفاعية³⁹، وبين 13500 و45000 حسب الجريدة البريطانية "ذو غواردين"⁴⁰. ومن المؤكد أن عدد العراقيين الذين قتلوا في أعمال المقاومة ضد الولايات المتحدة قد ارتفع بقوة خلال السنوات الأربع التالية للغزو. وفي ما يتعلق بالقوات العراقية المتحالفة مع الولايات المتحدة، يشير موقع تعداد الضحايا العراقيين في قوات التحالف إلى سقوط 7 774 قتيلًا عراقيًا في الشرطة العسكرية، بناءً على تقارير جديدة تعود إلى 20 آذار/مارس 2007⁴¹. ومن المدهش أن حتى هؤلاء الضحايا الذين يقاومون إلى جانب التحالف – وهم

34 المرجع نفسه.

35 "ل. روبرتس"، و"ر. لافتا"، و"ر. غارفيلد"، و"ج. خذيري"، و"ج. بورنهام"، "Mortality before and after the 2003 invasion of Iraq: Cluster sample survey" (عدد الوفيات قبل غزو العراق في 2003 وبعده: مسح عنقودي بالعينات) , The Lancet, Vol.364, Issue 9448, pp. 1857-1864, "Mortality after the invasion of Iraq: A sample survey" عدد الوفيات بعد غزو العراق في 2003: مسح عنقودي بالعينات شامل لعدة قطاعات), The Lancet, Vol. 368, Issue 9545, pp. 1421-1428.

36 في 13 كانون الأول/ديسمبر 2007، أكدت وزارة الدفاع الأمريكية أن عدد القتلى في صفوف الجنود الأمريكيين هو 3 891 قتيلًا. أنظر <http://icasualties.org/oif/> (الزيارة الأخيرة للموقع في 13 كانون الأول/ديسمبر 2007).

37 وقدمت "ديان سويبر" من قناة "أي بي سي" أيضًا، الأرقام نفسها تقريبًا: 218 3 قتيلًا بين الجنود الأمريكيين، علاوة على 600 العراقيين لقناة "أي بي سي"، يمكن الاطلاع عليه على العنوان التالي: <http://www.fair.org/index.php?page=3064> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

38 المرجع نفسه.

39 أنظر "Project on Defence Alternatives" (مشروع البدائل الدفاعية)، 20 تشرين الأول/أكتوبر 2003، على العنوان التالي: <http://www.comw.org/pda/0310rm8apl.html>

40 جريدة The Guardian (ذي غواردين)، 28 أيار/مايو 2003.

41 على العنوان التالي: <http://www.icasualties.org/oif/> (آخر زيارة للموقع في 13 كانون الأول/ديسمبر 2007).

ضعف القتلى في صفوف القوات الأمريكية تقريباً – غالباً ما تغفل الصحافة الأمريكية عن حسابهم.

ويكاد أن يكون مؤكداً أن أية حصيلة تستند إلى سجلات رسمية مدونة أو تقارير إخبارية ستكون ناقصة، لاسيما في بلد مثل العراق حيث الخوف من خطر الهجوم من الطرفين هاجس راسخ في نفوس المراسلين الذين نادراً ما يغامرون بحياتهم للتنقل خارج بغداد (أو إلى أغلب ضواحي بغداد للسبب نفسه). وكما يشير إليه موقع تعداد الضحايا: "من المرجح أن يكون العديد من المصابين المدنيين إن لم يكن أغلبهم غير معلن عنهم"⁴².

والمهم أن الأمم المتحدة قامت باستعراض سجلات الحكومة وشهادات الوفاة وأعلنت عن خسائر في أرواح المدنيين بلغت 34 000 قتيلاً في سنة 2006 وحدها⁴³. كما قدر وزير الصحة العراقي، السيد علي الشمري، في تشرين الثاني/نوفمبر 2006، أن بين 100 و15 000 عراقي لقوا حتفهم إثر أعمال العنف منذ بداية عام 2004⁴⁴.

وأضى الأستاذ الجامعي، "أندرو ج. باسيفيتش"، الذي يدرّس التاريخ والعلاقات الدولية في جامعة بوستن، أكثر من سنة وهو يعمل محاولاً إعادة فتح النقاش حول هذا الموضوع. وكتب، مستهلاً هذا النقاش، مقالة تحمل عنوان "ما الذي يهيم في العراق"⁴⁵ أشار فيها إلى غياب إحصاءات تقيّم عدد الضحايا المدنيين في العراق، لاسيما في ما يتعلق بالحادثتين الشهيرتين في مدينتي حديثة والمحمودية، وحوادث القتل الأكثر شيوعاً على نقاط التفطيش مثل حادث سمراء في بداية عام 2006. وأشار "باسيفيتش" في مقالته إلى أن الجيش الأمريكي جني العتاب على تعدهه لضحايا حرب فيتنام، فلم يجر منذ ذلك الحين أي تعداد علني لضحايا الحرب المدنيين.

ووصف "جيمس وولكوت"، المحرر المشارك في مجلة "فانيتي فير"، مقالة "باسيفيتش" بأنها "مهمة (...)" لأنها تبين قلة الخبرة في التعامل مع المصابين المدنيين، الشيء الذي أدى إلى تحويل الذين كنا نتفاخر بتحريهم إلى أعداء"⁴⁶. وأشار إلى أن هذا السلوك، كما وصفه "باسيفيتش"، ليس جديداً، وهذا يحمل على الاعتراف بأن "السياسة الأمريكية منسجمة من هذه الناحية على الأقل، لأننا مازلنا نرتكب الأخطاء الفتاكة نفسها في أفغانستان، وربما كان الاستخفاف هنا أكثر صيئاً".

⁴² على العنوان التالي: <http://www.iraqbodycount.org/> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

⁴³ أنظر جريدة New York Times (نيويورك تايمز)، 17 كانون الثاني/يناير 2007؛ ومنظمة النزاهة والدقة في تغطية الأخبار، المذكورة سابقاً (الحاشية 37).

⁴⁴ أخبار قناة BBC (بي بي سي)، 10 تشرين الثاني/نوفمبر 2006، على الموقع التالي: http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/76135526.stm (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

⁴⁵ "أندرو باسيفيتش"، "What counts in Iraq" (ماذا يهيم في العراق)، جريدة "واشنطن بوست"، 10 تموز/يوليو 2006.

⁴⁶ على العنوان التالي: http://www.vanityfair.com/politics/blogs/wolcott/2006/07/blowback_can_be.html (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

التجريد من صفات الإنسانية في الإعلام العربي أيضا

لم يكن الإعلام الأمريكي وحده السبب في تجريد العراقيين من صفات الإنسانية، فأجهزة الإعلام العربية أيضا كان لها ضلع في ذلك. وقد تناقلت الجرائد والمحطات التلفزيونية العربية وبصورة روتينية أخبارا عن حوادث رئيسية أودت بحياة العديد من العراقيين. لكن لو وضعنا في موضع المقارنة التغطية التي خصصها أي مركز إعلامي عربي (من حيث الوقت وحيث التغطية فقط) للضحايا العراقيين والضحايا الفلسطينيين لوجدنا أن الفرق بينها يوحي بأن أرواح الفلسطينيين أكثر قيمة من أرواح العراقيين. ويبدو الفرق جليا أيضا عندما نقارن بين التغطية الإعلامية المخصصة لانفجار سيارة في لبنان (على يد شخص عربي في أغلب الشك) والحادثة نفسه في العراق. وغالبا ما يعكس الإعلام العربي اللامبالاة التي يبديها القادة العرب حيال الوضع في العراق. فيذهب البعض إلى أن الكثير من المناهضين للغزو الأمريكي للعراق يظهرون معارضتهم للحرب عن طريق عدم الاهتمام بالخسائر اليومية المباشرة منها أو غير المباشرة. في حين يرى البعض الآخر أن معالجة الإعلام العربي للوضع العراقي لا تختلف عن سواها. وقد فتح فيصل القاسم، منسق أحد أهم برنامج تلفزيوني على قناة الجزيرة، باب المناقشة عندما أوضح في برنامجه مسؤولية الإعلام العربي في حملة التجريد من الإنسانية الواسعة النطاق. والسيد القاسم يقدم برنامج الاتجاه المعاكس الذي يدعو فيه شخصين يمثلان وجهات نظر مختلفة تماما ثم يفسح لهما المجال للتشاجر أمام عشرات الملايين من المتفرجين العرب، وهو يحظى باحترام كبير في أرجاء العالم العربي كافة. وكتب السيد القاسم مقالة باللغة العربية في منتصف حزيران/يونيو 2005، نشرت في عدة صحف ومجلات، هاجم فيها الأنظمة العربية والصحافة العربية لما تتسبب فيه من تجريد للشخصية الإنسانية عند المواطنين العرب، وهاجم أيضا زملاء العرب على طريقة معالجتهم للمسائل العامة وتجاهلهم للعنصر الإنساني. وبعد عرض لمحة عامة عن الأساليب الدكتاتورية للقادة العرب وتسخيرهم للإعلام العربي سعيا إلى البقاء في الحكم، واهتمامهم الخاص بالمشاكل الخارجية والإقليمية، دعا إلى إحداث تغيير عاجل وإتاحة إعلام أكثر إنسانية قائلا: "أما أن الأوان أن يخرج الإعلام العربي من شرنقة "القضايا الكبرى" ويلتفت إلى قضايا الناس بتفاصيلها الصغيرة (...). لقد حان الوقت لأن نبدأ من القاعدة إلى القمة وليس العكس وهو ما يفعله الإعلام العربي منذ انطلاقاته"⁴⁷. وانتهى السيد القاسم إلى القول: "وصدقوني عندما نعالج همومنا ومشاكلنا الصغرى فإن "قضايانا الكبرى" ستتحل بشكل أوتوماتيكي، فالإنسان المهمش والمهمل لا يستطيع أن يتصدى للشؤون العظمى ما لم يكن قد تخلص من همومه الصغرى (...). فهل يصبح إعلامنا في خدمة الإنسان؟ ألسنا بحاجة إلى أنسنة الإعلام العربي؟ أم علينا أولاً أن

47 على العنوان التالي: <http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=39439> (آخر زيارة للموقع في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 2007).

نؤنس أنظمتنا السياسية منزوعة الإنسانية من خلال ديمقرتها، والباقي يأتي تباعاً⁴⁸. إلا أن السيد القاسم، الذي لم يحدث أبداً أن هاجم سوريا بلده الأصل علانية، لم يلتفت في مقالته إلى الإقرار بأن المحطة التي يقدم فيها برنامجها الخاص لم تبذل جهداً يُذكر لإظهار الوجه الإنساني للعراقيين بل أذنبت حين تعثرت في ضبط موازين التغطية الإعلامية بالقسط بين الضحايا الفلسطينيين والضحايا العراقيين.

الخاتمة

إن نص العبارة "الحروب تتولد في عقول البشر" في ديباجة ميثاق اليونسكو يصدق اليوم بقدر ما كان صحيحاً يوم وُضع بعد الحرب العالمية الثانية. وأمام تكاثر وسائل الإعلام وثورة المعلومات الرقمية بدرجة خاصة، على المجتمع الدولي أن ينظر من جديد في ما ينبغي عمله إزاء هذا العنصر المهم لاسيما خلال أوقات الحرب. ومع أن الصحفيين صاروا اليوم قادرين على إرسال كلمات وصور وأفلام سينمائية عبر الوسائل اللاسلكية من أية بقعة في العالم، فلم يتغير الكثير منذ التقوه بتلك الكلمات عشية الحرب العالمية الأولى.

والمادة 19 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تشير بوضوح إلى حق الصحفيين والجمهور بصفة عامة في المعلومات والأفكار فتتنص على ما يلي:

"لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة إعلامية كانت بغض النظر عن الحدود".

ورغم ما تحمله كلمات هذه المادة الشاملة من مدلول قوي، لم ينجز الكثير لتضمينها في النصوص القانونية سواء على الصعيد المحلي أو الدولي. فقد أفضت الحرب في العراق إلى حمام دم أدى إلى مصرع أعداد من أفراد الصحافة ووقوع أعداد أخرى من الإصابات وحالات الخطف والقتل، وإلى معاناة بين الصحفيين العراقيين لم يعشها أي من زملائهم في المهنة. ومع أن المثال الأعلى الذي يقر به كل صحفي ويرنو إلى بلوغه في أداء مهمته وتمثيله لأسرته الإعلامية هو البحث عن الحقيقة ونشرها أو بثها، فإن هذا العنصر كثيراً ما يكون غائباً بصورة فاضحة في وسائل الإعلام وعلى نحو أخطر في أوقات الحرب. إن الجهود المبذولة للحصول على قرار شن الحرب واسترضاء النقاد بعد نشوبها أدت إلى التعمد في الاستهانة بالحقيقة، بل وأسفرت بشكل محزن عن عملية

48 المرجع نفسه.

تجريد من الإنسانية استهدفت الشعب العراقي بالذات الذي زعموا أنهم شنوا الحرب
لتحريره.